إعادة كتابة التاريخ في الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي

زكية عرعار
أ د. بلقاسم مالكية
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

ملخص:

تعرض هذه الدراسة أهم المشاريع الفكرية المناهضة للاستعمار والتي جعلت من التاريخ محورا أساسيا لها، ولقد اندرجت قضية "إعادة كتابة التاريخ" في الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي ضمن إطار المقاومة الثقافية للاستعمار باعتبار أن التاريخ مثل ولازال يمثل المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه مسألة الهوية. وهذا ما جعل الغرب كقوة استعمارية تهدف إلى إثبات الذات عبر نفي وجود الآخر يعمل على تزييف وتشويه تاريخ الشرق.

الكلمات المفتاحية: التاريخ- مابعد الكولونيالية- مناهضة الاستعمار- الاستشراق- التابع.

Abstract:

This study presents the work of the anti-colonialist intellectual projects which made history as its basic center. The history rewrite issue in the critical discourse of post-colonialism has fallen within the framework of colonialism cultural resistance with the consideration that history was and is still the fundamental principle which the identity depends on and that made the west-as a colonial power aims to prove itself through the denial of the other's existence- works on forging the eastern history.

Key words :History- post colonialism- anti-colonialism- orientalism-subaltern.

" التاريخ مجموعة أكاذيب متفق عليها" نابليون بونابرت

من المؤكد أن التاريخ هو ذاكرة الشعوب التي تتشكل عبر العصور والأزمان، والتي من خلالها تكتسب الأمم وجودها وهويتها ومقوماتها الفكرية. التي تمثل بمرور الزمن إرثا ثقافيا وحضاريا تستند إليه في تأكيد وبناء حقائقها ومعارفها التي تلعب دورا هاما في تحديد مكانتها ورؤيتها المستقبلية، والتي تمنح للأجيال فرصة التعرف على ماضيهم، وهكذا عُد التاريخ << السجل الذي يضم بين دفتيه التجربة البشرية التي عاشها الانسان على وجه الأرض[...] وبدونه لا تستطيع مجموعة من الناس أن تتعرف على شخصيتها >>[1]

ويعد تمرير هذه المعارف التاريخية الخاصة من جيل إلى جيل عملية لا تخلو من صعوبة إذ تخضع هذه الأحداث كي يتم تدوينها إلى تحويرات يقوم بها المؤرخ، وذلك على مستوى ترتيب الأحداث وطريقة ربطها وتسلسلها كي تخرج بطريقة واضحة ومفهومة، وتعد طريقة هذه الصياغة بمثابة ما يسمى في العمل الأدبي السردي بالحبكة. وهذا ما جعل العديد من الدارسين يصنفون الكتابات التاريخية بالقرب من الكتابات الأدبية باعتبار أن << التاريخ يدرك أو يتشكل بوصفه حكاية تتألف من أحداث ووقائع وشخصيات، وهذه الحكاية أو هذا الشكل السردي ليس موجودا في الأحداث الواقعية بل على المؤرخ أن يبتكر هذه الحكاية عليه أن يسردن تاريخه، وأن يستخرج حكاية من كومة الأحداث المتنافرة وغير المترابطة أو غير المتجانسة أو غير المنضدة بالضرورة، عليه أن يضع حدثا ما بوصفه سببا وآخر بوصفه أثرا، عليه أن يبرز حدثا ما، ويغيب آخر، كما عليه أن ينصب شخصية ما بوصفها بطلا >>[2] ، وقد يخضع هذا الترتيب إلى الميول الفكرية للمؤرخ، ما يجعل الذاتية مكون أساسي من مكونات التاريخ في حين يتم استبعاد الموضوعية اللازمة في نقل الأحداث، ويقودنا هذا إلى التفريق بين التاريخ والتأريخ، هذا الأخير الذي يلزم فيه المؤرخ بوظيفة <<

جمع الحقائق التاريخية، ووثائقها مع تسجيلها تباعا>>[3] في حين أن التاريخ كما بينا خاضع لفكر المؤرخ، وهذا ما يثبت المقولة القائلة " التاريخ من صنع المؤرخ " ويعد غياب الجانب الموضوعي في العمل التاريخي والخضوع إلى معـــايير ذاتية من طرف المؤرخ، يجعل التاريخ كمعرفة خاضعة لمؤسسة قائمة بدورها على الترويج لفكر معين، هو فكر الفئـــة الغالبة في معظم الأحيان، ما يجعل منها معرفة غير دقيقة وغير حقيقية أي خادعة، وكل ما ينبني عليها فهو بدوره غير حقيقي ومزيف. من هنا نستطيع القول أن التاريخ كمعرفة قائم على التأويل وإساءة التأويل للماضي والثقافة وإن صـــح القول للإنسان في حد ذاته وهويته. وهكذا يبرز لنا التمثيل كصورة من الصور التي تكشف عن التواطئ بين القوة مـــن جهة ودورها في إنتاج المعرفة من جهة ثانية، وفي هذا السياق تؤكد آنيا لومبا هذه العلاقة قائلة إن << المعرفة ليســـت بريئة لكنها ترتبط بعمق مع عمليات السلطة >>[4] وفي سياق العلاقة القائمة _ على القـــوة بالتأكيـــد_ بـــين الشـــرق والغرب، وإيمانا من الغرب بأن التاريخ هو ما تستند إليه الشعوب في إثبات ذاتها ووجودها وكيانها، فقد أعطى لنفســـه الحق في التلاعب بتاريخ الشرق وكتابته من وجهة نظره القائمة على الحط من قيمة الآخر وتدنيســـه ومحاولـــة نفـــي وجوده.

الغرب وكتابة التاريخ:

ومن المعلوم أن المستعمِر لما يتولى كتابة التاريخ فهو لا يكتب تاريخ البلد المستعمَر في واقعه وكمـــا هـــو ولا يسمع لأصوات أولئك الرجال والنساء والأطفال، بقدر ما يعمل على إسقاط رؤيته هو رؤية بلده عليهم، وهو بذلك يصنع التاريخ ويعلم أن << التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهب خيراته بل تاريخ أمته>>[5] مهملا بـــذلك موضـــوع التاريخ في حد ذاته، وهو الفئة المستعمَرة أو ما يسمى بالمهمشين، ولهذا عد الناقد الانجليزي روبـــرت يونـــغ التـــاريخ أعظم أساطير الغرب التي يستديم بها وجوده، والذي خصه بدراسة مفصلة تحمل عنوان "أساطير بيضاء: كتابة التـــاريخ والغرب" حيث نجده يعرض لمفهوم التاريخ الذي كتبه الغرب قائلا: << إذا كان التاريخ كله نسخة رديئـــة، كمـــا قـــال أفلاطون، فحينئذ ينطبق على هذا التاريخ كذلك؛ ذلك أن أي تاريخ يقدمه ليس سوى صورة زائفة لأحـــد التـــواريخ، أي محاكاة تاريخية >>[6] ، وهنا يبرز دور المؤرخين الذين لطالما وضعوا السواد على البياض، وهذا ما جعل إيميه سيزير يتساءل: متى سيكون التاريخ أبيضا؟ ولقد أكد فرانس فانون أن هذا التاريخ لن ينتهي إلا من خلال قلب موازين الصراع وإنهاء الاستعمار << الذي لا يمكن أن يعبر عبورا دون أن يلاحظه أحد، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغييرا أساسيا، يحول متفرجين مسحوقين يعانون من فقدان الماهية إلى عناصر فعالة متميزة تدخل تيار التاريخ دخـــولا رائعـــا [...] محو الاستعمار معناه أن "الأواخر سيصبحون الأوائل" >>[7]، وهكذا يؤمن محو الاستعمار بداية تاريخ جديـــد هـــو تاريخ العالم الثالث، وفي ظل التحولات السياسية المتمثلة في استقلال معظم دول العالم الثالث وفضح الحقـــائق الفكريـــة للاستعمار من خلال كتابات سيزير فانون ومامي ، بدأت التصدعات تتسرب إلى البنية الفكرية الغربية، وبدأ الغرب يفقد سلطانه على العالم الثالث، وكما يقول سارتر فإن << أوروبا تنفجر فيها الشقوق في كل جزء منها، فما الذي حدث إذن؟ كل ما في الأمر أننا كنا نصنع التاريخ فيما مضى، أما الآن فهو يصنع لنا >>[8] وهكذا بدأ التاريخ الـــذي لطالمـــا اتخـــذ مسارا واحدا هو المسار الذي حدده الغرب، يواجَه بالتحدي من طرف هؤلاء الذين أعلنوا بداية تاريخ جديد، هو تـــاريخ العالم الثالث، وهاهو فرانس فانون يعلن ذلك قائلا: << فلتأتوا إذن يا رفاق، فقد انتهت اللعبة الأوروبية أخيـــرا...إنهـــا مسألة بدء العالم الثالث تاريخا جديدا >>[9]

ولقد أدت هذه التحديات إلى انتزاع المشروعية من الغرب في تمثيل الشرق، وإعطائها للذات التي أعادت كتابـــة تاريخها وتاريخ الغرب ذاته من منطلق تجربته(أي الشرق) المريرة في الاستعمار والمقاومة، وهكذا اندرج مشـــروع "إعادة كتابة التاريخ" ضمن إطار المقاومة الثقافية للاستعمار، والتي قادها مجموعة من المثقفين الذين تنحدر أصولهم من

العالم الثالث، حيث شكلت كتاباتهم " خطاب ما بعد الكولونيالية " وفي الطليعة منهم "إدوارد سعيد" وجماعة "دراسات التابع".

إدوارد سعيد وإعادة كتابة التاريخ:

وفي إطار المقاومة الثقافية للاستعمار عُدَّ " إدوارد سعيد" من أوائل المثقفين في الولايات المتحدة الأمريكية الذين وجّهوا خطابا قويًّا لتفكيك الخطابات الغربية القائمة على النظرة الاستعلائية. ورافضا من خلال ذلك الروايات الغربية للتاريخ، فاتحا الباب أمام بروز خطاب تاريخي مغاير، خطاب يتخلص من السلطة والهيمنة. خطاب يتخلص من الرؤية التي تجعل من الشرق تابعا فكريا، خطاب يحوّل الشرق من موقع التابع إلى موقع الفاعل في تأسيس الثقافة الغربية ذاتها.

وينطلق " سعيد" في ذلك من مبدأ أساسي، له أصول فوكوية، قوامه أنه: << لايخلو فرع من فروع العلوم أو الابستيمولوجيا أو أي بنية من أبنية المعرفة أو المؤسسات الاجتماعية، أقول لا يخلو شيء من هذا القبيل من أثر للعوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية والسياسية >>[10]

ولما كان الاستشراق- في نظر " إدوارد سعيد" أسلوب تفكير قائم على نظرة سياسية إيديولوجية إلى العالم، لا يمكن بحال من الأحوال التغاضي عن تأثيرها في تمثيل الشرق، فهو كما يصرح ما هو إلا: << بنية نشأت وترعرعت في معمعة السياق الإمبريالي، بحيث عبرت هذه البنية على الجناح المهيمن في هذا السياق، فأخذت تدعمه بتوسيع مجاله، ليس فقط بوصفه ضربا من ضروب البحث العلمي، بل أيضا باعتباره ضربا من الايديولوجيا المؤيدة لهذا السياق. بيد أن الاستشراق قد تمكن من التعمية على هذا السياق وراء ما ساقه من مصطلحات علمية وجمالية>>[11]

ولهذا عَدَّ " إدوارد سعيد" الشرق الذي اخترعه هذا الاستشراق إفراز من إفرازات الفكر الغربي السياسي الذي يسعى إلى الهيمنة. ولقد كان يهدف من خلال ذلك إلى إعادة كتابة تاريخ هذا الشرق من وجهة نظر دنيوية واقعية، فلم يكن الشرق أبدا ذلك الكيان أو التجمع البشري (الحيواني) ذو الطابع السلبي الضار والذي يجب على الغرب تقييمه وإعادة تقويمه وفق النظرة الإنسانية (الغربية) كما تجسد في كتابات المستشرقين الغربيين، بل هو فاعل هام في هذه الثقافة، بحيث لعب دورا كبيرا في بناء الذات الغربية بشكلها المتجسد في الاستشراق، وهو -أي الشرق- في نظر " سعيد": << ليس مجاورا لأوروبا وحسب، بل إنه أيضا موقع أعظم وأغنى وأقدم المستعمرات الأوروبية، وهو مصدر حضاراتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي، وهو يمثل صورة من أعمق صور الآخر وأكثرها تواترا لدى الأوروبيين. أضف إلى ذلك أن الشرق قد ساعد في تحديد صورة أوروبا (الغرب) باعتباره الصورة المضادة، والفكرة والشخصية والخبرة المضادة. ومع ذلك لا يعتبر أي جانب من جوانب هذا الشرق محض خيال، فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوروبية >>[12] ولقد عمل قلب مفهوم الشرق من الطابع السلبي إلى الإيجابي على تحرير الدراسات الغربية عن الشرق من الهيمنة والإمبريالية (الغربية)، وكذا إضفاء الطابع الإنساني على الشرق، وذلك من خلال ربط العلاقة الوثيقة الصلة بين الغرب والشرق، وإبراز الدور الذي لعبه هذا الأخير في بناء الحضارة الغربية والأصح الإنسانية، باعتبار أن الغرب لم يأتي من فراغ بل اكتسب تفوقه الفكري والثقافي والحضاري والاقتصادي...من الشرق (أي أثناء الفترة الاستعمارية).

ولقد استطاع "إدوارد سعيد" أن يجترح الصورة الغربية عن الشرق من خلال اهتمامه المنصب على الأعمال الأدبية التي تحمل في ثناياها علاقة تجمع بين الفن والإمبريالية، وهذا ما جعله<< لا يعالج النصوص الأدبية بما هي منجزات جمالية فحسب وإنما بوصفها وثائق تاريخية بصورة ما>>[13]، ترمي إلى تمثيل الشرق وفقا لقوانين الغرب، وعلى هذا تمحور مشروع "سعيد" النقدي الذي يهدف أساسا إلى تفكيك وإلغاء الصور التمثيلية النمطية التي خصها

الغرب بالشرق، باعتبار أن هذه النمطية والثبات تخفي التطور التاريخي بل تلغيه، ما يعني أن الغرب بنى نظرته للشرق على ما يسمى بمبدأ الجوهرانية الذي يعني أن هناك خصائص ومميزات سلبية كامنة، ومكوّنة للإنسان الشرقي وغير قابلة للتطور بفعل الزمن، وهذا تماشيا مع الرؤية السياسية والإيديولوجية التي أدت إلى ركود حركة التاريخ، ما جعل" سعيد" ينطلق <<من عداء صريح للنزعة الجوهرانية >>[14]، وهذا ما يتضح لنا جليًّا في قوله الذي يؤكد فيه أن الاستشراق <<باعتباره مذهبا فكريا يعالج حقيقة إنسانية دينامية مركبة ومتعددة العناصر من وجهة نظر غير نقدية، تنسب إلى هذه الحقيقة جوهرا ثابتا (وهو مذهب الجوهرانية) وذلك يوحي بوجود حقيقة شرقية ثابتة دائمة، ووجود جوهري غربي يعارضها ولا يقل عنها ثباتا ودواما، وهو يراقب الشرق من مسافة بعيدة، وكذلك إن صح التعبير -من علٍ- وهذا الموقف الزائف يخفي التغيير التاريخي، والأهم منه في نظري أنه يخفي مصالح المستشرق >>[15] وهكذا فإن الأعمال الاستشراقية حاولت محاكاة وجهة نظر خيالية نسجت من خلالها عالما متماسكا يتماشى والرؤية الغربية، حيث تجسد فيه الشرق اللاإنساني والدوني والمنحط، وشكلت هذه الأعمال حقائق تجسد الشرق، ما جعلها تدخل إلى التاريخ من بابه الواسع، وهكذا فإن الصراع لم يكن فقط على الأرض بل امتد إلى الصراع حول المعنى التاريخي، وباعتبار أن التاريخ كما أكد "فيكو" صناعة فإن<< البشر هم الذين يصنعون التاريخ الإنساني وما دام الصراع من أجل السيطرة على الأرض هو جزء من ذلك التاريخ، كذلك فإن الصراع على المعنى التاريخي والاجتماعي هو بدوره جزء من التاريخ ذاته >>[16] وهكذا أصبح السرد الغربي عن الشرق سردا متسيدا يفرض نفسه كتاريخ للشرق. وأصبح التاريخ تبعا لذلك، ذو اتجاه واحد هو اتجاه الأقوى والأقدر على فرض الهيمنة. ولقد أدت هذه العلاقة بين السلطة والمعرفة وبين الثقافة والإمبريالية بإدوارد سعيد إلى الزعم بأن: << الروايات (الحقيقية) للتاريخ ما هي إلا نتائج الاستراتيجيات الثقافية التي أُعِدَّت للاحتفاظ بالسلطة والمكاسب المادية >>[17] ويرجع هذا إلى القناعة التي كان مسلما بها عند إدوارد سعيد" والتي كانت نقطة الشك الراديكالية التي انطلق منها وإنبنى عليها من ثم المشروع النقدي السعيدي، وهي أن << السياسة في صورة الإمبريالية تؤثر في إنتاج الأدب والنظرية الاجتماعية وكتابة التاريخ >>[18]

ويصبح التاريخ تبعا لذلك بنية فكرية تعكس نظام تفكير تجسد في المشروع الاستشراقي الغربي، ومن هنا نكتشف العلاقة الوطيدة القائمة بين علمي الاستشراق والتاريخ باعتبار أن التاريخ << يخدم رؤية الاستشراق للعالم، وهي الرؤية التي تعتبر إمبريالية بصفة عامة >>[19]

من هنا نستطيع القول أن التلاعب بالتاريخ أصبح سمة من أهم السمّات المميزة للخطاب الاستشراقي الكولونيالي، حيث كان هذا التلاعب من بين وسائل السيطرة التي كانت في يد الغرب، وفي هذا السياق استؤصل التاريخ والثقافة العالمثالثية من جذورهما، وهذا ما جعلهما يظهرا في صورة زائفة ومشوّهة، وعلى هذا تركز مسعى المشروع السعيدي الذي يهدف إلى << التحرر من الروايات الرسمية للتاريخ و (الحقيقة) عبر تشييد وعي بـ(التواريخ المطمورة) التي تنطوي على الحقيقة الفعلية المقموعة في غالب الأمر>>[20] ، وذلك من خلال إعادة قراءة التراث الغربي السردي عن الشرق وربطه بالسياقات السياسية والفكرية التي نشأ وترعرع فيها، وهكذا فإن مقاربة "سعيد" النقدية تتحدد على حد تعبير "شيلي واليا" << بوصفها فاعلية نقدية أو تأويلية تتوسط الأدب والتاريخ لتكشف فيهما على خطاب إيديولوجي واحد يتعالى على اختلاف الحقلين واستقلال كل واحد منهما بأساليبه >>[21] وهكذا يركز سعيد على السرديات خاصة، وهذا نظرا للوظيفة التي تؤديها لكلا الطرفين الشرقي والغربي على حد سواء، باعتبار أن هذا الأخير اعتمدها كطريقة ناجعة لإخضاع الأصلانيين والحط من قيمتهم، بوصفها تقدم حقائق تاريخية ثابتة، في حين نجدها الوسيلة المثالية التي اعتمدها الشرق للرد على الغرب، من خلال قلب التصورات الغربية عن الشرق، وفضح المرويات الغربية التي لطالما اعتمدت على الرؤى الخيالية متناسية الواقع الدنيوي.

ويعد هذا الجهد الواعي الذي ينم عمّا يسمى بالإدراك الذاتي، أي إدراك الشعوب المستعمَرة لذاتها وللمكانة التي تشغلها في هذا العالم، هذا الجهد الذي استطاع من خلاله مثقفي العالم الثالث كسر الحواجز التي أقامها عليهم المستعمِر والمستشرق على حد سواء، ومن ثم اقتحام الخطابات الغربية من خلال فهمها وفضح الأسس السلطوية التي بنيت عليها، ويسمي إدوارد سعيد هذا الجهد<< الواعي لولوج إنشاء (خطاب) أوروبا والغرب، والتمازج به وتحويله ودفعه إلى الاعتراف بتواريخ مهمشة أو مقموعة، أو منسية لهو جهد ذو أهمية خاصة [...] ولقد قام بهذا النوع من العمل عشرات الباحثين، والنقاد والمثقفين في العالم الأطرافي، وأنا أسمي هذا الجهد الرحلة إلى الداخل>>[22]

"دراسات التابع" وإعادة كتابة التاريخ:

ومن أبرز المشاريع الفكرية الرائدة في هذا المجال والتي أحدثت هزة قوية في الفكر الغربي، وثورة عارمة في تاريخ المستعمرات، حيث لم تبقى حبيسة المكان الذي تأسست فيه بل انتقلت إلى جل أرجاء العالم الثالث، مشروع جماعة " دراسات التابع " الذي تعود بداياته الرسمية إلى مطلع ثمانينيات القرن العشرين، حيث ينبني الفكر التقويضي لهذه الجماعة على محاولة لتخليص التاريخ من النظرة الغربية الاستعمارية الاستعلائية، والتي بموجبها يتم الكشف عن اليد الطولى التي رسمت سياسة كتابة التاريخ، وذلك بغرض إلقاء الضوء على أساليب الهيمنة الكامنة وراء هذه السياسة الهادفة إلى فرض السلطة الغربية التي تسعى إلى إثبات الذات على حساب تشويه الآخر وجعله تابعا، بل ومحاولة نفي وجوده، وتضم " دراسات التابع " << جماعة أكاديمية جريئة من المؤرخين الهنود الذين قلبوا تاريخ الهند الرسمي الذي كتبته النخبة المتأثرة بالسياسات الاستعمارية البريطانية، واقترحوا إعادة كتابته في ضوء مفاهيم مغايرة متصلة بالتاريخ الشفوي المنسي الذي استبعدته النخب الاستعمارية، فتاريخ الهند بالنسبة لهم، يمثله صراع الطبقات المغلقة والتحيزات الدينية والفئوية، والمرويات السردية، وأحوال المعدمين في الأرياف والمدن، وتبعية المرأة وكل الجماعات التي لم تنتج تاريخا مكتوبا، أما التاريخ الرسمي الذي دون في ضوء التصور الاستعماري فهو مجتزأ ونخبوي وزائف، ولا يمثل حقيقة بلاد غنية بتاريخها وأفكارها وأعراقها وعقائدها >>[23] وعلى هذا يتضح لنا أن الاهتمام الأساسي لهذه الجماعة منصب على تفكيك التصورات الغربية عن العالم الثالث القائمة على مبدأ الجوهرية الذي ينفي صفة التطور التاريخي لهذه الأمم، وهي بذلك _أي دراسات التابع_ تتبع الأثر الذي أحدثته الحقبة الاستعمارية على مجمل المعارف التي تقوم عليها المجتمعات، وخاصة علم التاريخ، وهذا ما جعل العديد من النقاد والدارسين يعتبرونها << مشروع ثقافي جماعي يسعى إلى إعادة النظر في المسلمات التي رسختها ثقافة الاستعمار في وعي الشعوب التي خضعت للتجربة الاستعمارية >>[24] ولقد ترسخ هذا الوعي بفعل الدور الذي قامت به النخب الوطنية الخادمة للسلطة الغربية، والتي مثلت من خلال ذلك مرحلة جديدة من مراحل الاستعمار، عُرفت بما يسمى الكولونيالية الجديدة التي تعتمد أساسا على مواصلة فرض الهيمنة بأساليب جديدة، وذلك عن طريق ربط العلاقة بين الغرب والشرق لا عن طريق الاستعمار المباشر، بل عن طريق فرض الايديولوجيا والثقافة الغربية في محاولة لإصلاح علاقات ظاهرها مثاقفة وباطنها نفاق إمبريالي جديد ولقد وقعت هذه النخب في أشراك الوعي القومي التي حذر منها فرانس فانون في كتابه " معذبو الأرض " وذلك عندما نادى بضرورة << تحويل الوعي القومي في لحظة انتصاره إلى وعي اجتماعي، وإلا فإن المستقبل لن يأتي بالتحرير، بل بامتداد للامبريالية [...] وعلى هذا فإن _ الوعي القومي _ يجب أن يُثرى ويعمق بتحويله بسرعة إلى وعي للحاجات السياسية والاجتماعية، وبكلمات أخرى إلى إنسانية [حقيقية] >>[25] ولقد أدت استمرارية هذا الوعي بعد الاستقلال إلى الابقاء على التراتبية الثنائية التي كانت في الحقبة الاستعمارية تمثل المستعمَر والمستعمِر، في حين أُعيدت صياغتها في فترة ما بعد الاستعمار في ثنائية النخبة والتابع. ولقد تشكلت هذه النخبة من المجموعات الوطنية الحاكمة والموالية للاستعمار، حيث عملت على << الاحتفاظ بالفكر القومي عقيدة رسمية لدولة ما بعد الاستعمار،

وكانت اقصاءاتها تتم عبر النظم القانونية والتربوية، وغالبا ما تكون مجرد صورة مطابقة للاستعمار >>[26] وجاءت بذلك دولة ما بعد الاستعمار مستبعدة بل ونافية لنضالات الطبقة الكادحة في المجتمع (الفلاحين، النساء...) وأعادت بذلك الوقوع في الأزمة الإنسانية التي وقع فيها الفكر الغربي _ وهذا هو مكمن الخطر الذي حذر منه فانون _ ما جعل مواجهة هذا الفكر _ فكر النخبة _ أمرا لازما، وذلك عن طريق << الكشف عن تواريخ ومواقف الناس الذين أقصتهم المشاريع القومية >>[27] أي تواريخ التابع، وهذا هو المدخل الأساسي لجماعة " دراسات التابع " التي سعت من خلال ما قدمته من دراسات إلى تحرير صوت التابع من الهيمنة التي فُرضت عليه وذلك من خلال إبراز الدور الذي قامت به الطبقة الكادحة والمعدمة في سبيل تحرير الأرض ونيل الاستقلال، ويعود مصطلح " التابع " إلى أهم رافد من روافد الفكر التقويضي لهذه الجماعة وهو المفكر الايطالي " أنطونيو غراميشي " ويعني هذا المصطلح حرفيا << ذا المنزلة الدنيا، والكلمة تتخذ أهمية خاصة في مسعى تمثيل الذات متقصدة الحط من السرود المتسيدة القائمة، وهذا الجهد التقويضي قد يأتي بالهوامش إلى المركز، وينتج تاريخا متعلقا بالتابع، يتم تجاهله غالبا في الكتابة النخبوية والتفسير >>[28] و" دراسات التابع " هو اسم المجلة التي حملت هذا الفكر الذي تبلور في حوالي إحدى عشرة مجلدا، صدر الأول منها سنة 1982، والمجلد الحادي عشر في سنة 2000، ولقد تضمنت متسلسلة مراجعة جذرية لتاريخ الهند، ويعد " راناجيت غوها " الأستاذ في جامعة إنجلترا المحرك الأساسي لهذه الجماعة، حيث << تنتقد أعماله المصادر الرسمية، وتُثمِن الدلالة السياسية لثورات الفلاحين، إنه يدفع إذن نحو مجموعة من الدراسات عن منسيي التاريخ الوطني الهندي >>[29] باعتبار أن النخبة أو الصفوة الهندية كما تسمى، لما استأثرت بكتابة تاريخ الهند تغاضت على كل الحقائق التي لا تتماشى وعظمة بريطانيا، وأهملت بذلك الأحداث اليومية التي عانى من خلالها الشعب الهندي (التابع) ويلات الحرب والهيمنة، ما جعلها لا تولي اهتماما بالمقاومة التحررية التي واجه من خلالها هذا الشعب الهيمنة الانجليزية.

ولعل هذا التنكر في تجسيد الحقيقة الواقعية لبلاد الهند في ما يسميه غوها " علم التأريخ اللاتاريخي " أي الذي أسقط من حسابه سياسات الشعب، هو السبب الحقيقي وراء << ذلك الإخفاق التاريخي للأمة في أن تنضج نضجها الذاتي، الأمر الذي يجعل دراسة هذا الإخفاق الإشكالية المركزية لعلم تأريخ الهند المستعمرة >>[30] ، وعلى هذا فإن دراسات التابع ودراسات ما بعد الكولونيالية عند هومي بابا وغاياتري سبيفاك (التي سنعرض لها فيما سيأتي) عملت أساسا على إعادة بناء وتحرير الذات المستعمَرة التي اغتصبها المستعمِر من خلال تمثيله لها، وعليه فإن علم التاريخ أصبح << تنقيدا لا استنساخا طيعا لأشياء الاستعمار وعقائدياته ومقولاته، وفي أعمال لاحقة يركز غوها على محاولة إنقاذ الصوت الأصلاني المقموع من التاريخ الاستعماري واشتقاق تبصرات تأريخية للماضي >>[31] ، وذلك باعتبار أن الأمم المستعمِرة عملت أيضا على فرض سيادتها على تواريخ الماضي بحيث أعادت تشييدها وفق رؤيتها المهيمنة، وهذا ربما ما جسده عنوان كتاب ضخم _ على حد تعبير إدوارد سعيد _ هو " اختراع التاريخ " بحيث أن هذا العنوان يوحي بنوع من التلفيق والفبركة التي اصطنعها الغربي لبسط سلطانه على الماضي التاريخي للمستعمَر الذي يتم ربط تاريخه بتاريخ دخول الاستعمار، أي أن الاستعمار هو التاريخ الوحيد لهذه الشعوب، وهذا ما جعل الغرب يقع في المفارقة الزمنية التي أسقط من خلالها على فترات زمنية ما ليس فيها، وهكذا فإن المسعى الأساسي لدراسات التابع هو إعادة كتابة تاريخ الهند وكل المستعمرات الغربية بأشكال مضادة وانتقاديه للرؤية المهيمنة التي ترى في الغرب مركز العالم، ويقول غوها في تقديمه للمشروع << إن دراسات التابع سوف تختبر أمم ومجتمعات ما بعد الكولونيالية لتناول ما في داخلها من التصدعات والتمزقات >>[32]

ويمثل دراسات التابع مفكرون ونقاد مثل: "غاياتري تشاكرافورتي سبيفاك، راناجيت غوها، هومي بابا، طارق علي، إقبال أحمد، رميلا ثابا، ماساو يوشي، غايان برافاش، شهيد أمين، ديبيش تشاكرابارتي...وعشرات سواهم"

ولعل الأمر البارز والمشترك بين هؤلاء النقاد هو ارتباطهم الوثيق الصلة بالفكر الغربي وخاصة التقويضي الذي شكل مرحلة ما بعد الحداثة (فوكو، دريدا، غراميشي، سعيد...) وذلك من خلال دراستهم وتدريسهم في الجامعات الأنجلوفونية، وهذا ما جعل تأثرهم به واضحا وجليا في كتاباتهم وأعمالهم، وهو ما مثل خلفياتهم الفكرية ومرتكزاتهم الايديولوجية ومرجعياتهم المنهجية،

ونظرا للدور البارز الذي قدمته هذه الجماعة للحركة النقدية المعاصرة من جلاء لطرق جديدة في المقاومة الفكرية للغرب، متمثلة في تخليص التاريخ وتحريره من النظرة الامبريالية الاستعلائية، وذلك في إطار تقديم بدائل جديدة للرؤية، وعلى الرغم من الثراء الفاحش للمصادر الفكرية لهذه الجماعة، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن الاعتراف العالمي بهذا المشروع لم يتم إلا في نهاية الثمانينيات تزامنا مع << صدور كتاب " مختارات من دراسات التابع" الذي حرره غوها وسبيفاك وقدم له إدوارد سعيد، هو الذي أعطى لهذه الدراسات طابعا عالميا ورسخ القيمة النظرية والمنهجية لها، فقوة الداعم التي قدمها إدوارد سعيد لجماعة دراسات التابع في تقديمه لمشروعهم باعتباره مشروعا يشغل ضمن دراسات ما بعد الاستعمار، أكسبهم المشروعية العالمية التي تخطت صعاب المحلية، والشكوك التي تصاحب كل فكر جديد >>[33]

ونستطيع أن نوجز أهم الركائز المعرفية لهذه الجماعة فيما يلي:[34]

أهمية البحث في الدور البارز الذي قامت به فئات الفلاحين والعمال والمرأة، في صناعة التاريخ الهندي

محاولة الخلاص من القراءة التقليدية المرتبطة بالدور الذي قامت به النخب السياسية

دراسة حالات الصراع بين القوى الرئيسة داخل المجتمع الهندي

الاستناد إلى الرؤية النقدية الساعية نحو الإفلات من المركزية الغربية، والعمل على تعميق الخصوصية القومية والمحلية

استثمار الجهود المعرفية التي أسست لها مدرسة ما بعد البنيوية الفرنسية وكتابات إدوارد سعيد وطروحات فرانس فانون

مراجع البحث:

1_ آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: أحمد عبد الغني غيوم، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا اللاذقية، ط: 1، 2007.

2_ إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط:1، 3.2006_ إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط: 3، 2004.

4_ إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، تر: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط:1، 1996.

5_ إدوارد سعيد: تمثيل التابع والمحاورون الانثروبولوجيون، مجلة فصول، المجلد الحادي عشر، العدد: 2، صيف 1992، القاهرة.

6_ إسماعيل نوري الربيعي: ورقة بحثية بعنوان: التاريخ قراءة ما بعد الاستعمار، تاريخ الاسترجاع: 4-4-7.2016_ روبرت يونغ: أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب، تر: أحمد محمود، المشروع القومي للترجمة، العدد: 616، ط: 1، 2003.

8_ شيلي واليا: إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: ناصر أبو الهيجاء وناصر خريس، أزمنة للنشر والتوزيع، ط: 1، 2007

9_ عبد الله إبراهيم: دراسات التابع، جريدة الرياض، العدد: 13618، تاريخ النشر: 6-10-2005، تاريخ الاسترجاع: 21-04-2015.

10_ عبد الله إبراهيم: قراءة في دراسات التابع، جريدة الرياض: العدد: 13576، تاريخ النشر: 25-8-2005، تاريخ الاسترجاع: 21-4-2015..

11_ فرانس فانون: معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، منشورات آنيب الجزائر_ دار الفارابي لبنان، ط: 1، 2004.

12_ كاترين هالبيرن وآخرون: الهويات الفرد الجماعة المجتمع، تر: إبراهيم صحراوي، دار التنوير، الجزائر، ط:1، 2005.
13_ كاظم جهاد: تمثيلات التابع_ صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط:1، 2004.
14_ موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، تحرير: ك. نلووف- ك.نوريس-ج.أوزيون، تـر: المشـروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة 2005، الجزء: 9، العدد: 919، ط: 1، 2005.15_ هاشم أحمد محمد: علم التاريخ، الناشر هلا بوك.

الهوامش:

[1]: 15، ص: 6-7.
[2]: 13، ص: 53-54.
[3]: 15، ص: 8.
[4]: 1، ص: 54.
[5]: 11، ص: 43.
[6]: 7، ص: 53.
[7]: 11، ص: 26.
[8]: 7، ص: 267.
[9]: 7، ص: 250.
[10]: 5، ص:29.
[11]: نفسه، ص: نفسها.
[12]: 2، ص: 43-44.
[13]: 8، ص: 7.
[14]: 4، ص: 102.
[15]: 2، ص: 506.
[16]: 4، ص: 102.
[17]: 8، ص: 30.
[18]: 2، ص: 61.
[19]: نفسه، ص: 62.
[20]: 8، ص: 15.
[21]: نفسه، ص: 8.
[22]: 3، ص: 17.
[23]: 9.
[24]: 10.
[25]: 3، ص: 323_325.
[26]: 1، ص: 202.
[27]: نفسه، ص: نفسها.
[28]: 8، ص: 27.
[29]: 12، ص: 299.
[30]: 3، ص: 307.
[31]: نفسه، ص: نفسها.
[32]: 14، ص: 343.
[33]: 10.
[34]: 6.